داركى
أو
الكلب الذكى

« اطمئن ياسيدى ولا يساورنك أى خوف. فلن يفوتك القطار! كن على يقين أننى أحضر السائحين إلى هذا المكان منذ خمسة عشر عاما ، وان أحدا من كل أولئك لم يفته القطار أتدرى ؟ إن أحدا لم يفته القطار ! »

« ولكن ... »

« أوه ، دع ساعتك جانباً ، لقد فاتك أن تعرف أمراً هاماً ليس فى قدرة ساعتك أن تزشدك إليه قط ، ذلك أن القطار يتأخر قيامه دائماً وفى كل مرة عن الميعاد المحدد له خمسة عشرة دقيقة ، وإن القطار لم يشذ عن هذه العادة مرة واحدة ، ولم يحدث قط أنه تحرك من المحطة قبل مضى ربع ساعة بعد موعد قيامه ... ! »

كذلك قال لى الحوذى ، ولكن حدث اليوم أمر شاذ ، فقد قام القطار فى موعده المحدد تماماً ولذلك لم يتيسر لى اللحاق به ، وما كاد السائق يرى ذلك حتى جن جنونه ، وطفق يقول لناظر المحطة :

لماذا لم تنبه من قبل ! لماذا لم تنذر الناس بأن قطاركم يبدأ من اليوم القيام فى موعده المحدد ؟ هذا حادث لم نر له شبيهاً »

واندفع ينادى المارة قائلا .

نبئونى بربكم ، هل حدث مثل ذلك الأمر من قبل ، أجيبوا أيها الناس فانى أخشى أن يظن بى هذا السيد الظنون . أو يدور بخلده ان لى يدا فى هذا الخطأ ، قولوا له أيها الناس إن القطار منذ انشائه الى اليوم ، نعم منذ انشائه ، الى اليوم لم يتحرك فى موعده ! »

وهنا صاحت فتة منهم قائله : « أنت على حق فيما تقول ، فان من عادة القطار أن يتأخر عن موعد قيامه ! »

***

لقد كان على أن انتظر ثلاث ساعات طويلة فى هذه القرية الحقيرة حتى يحين

موعد القطار التالى ، ولم يكن لى بد من قضاء هذا الزمن فى بلدة ليس فيها ما يروع القلب ، ويبهج النفس !

والحق ان هذه مشكلة معقده جعلتنى أسأل الحاضرين بدورى عما أصرف فيه الوقت ، فاجابنى جماعة منهم فى نفس واحد : عليك بالذهاب الى الكالدرون (١) ، فهو المكان الوحيد الخليق بالزيارة والرؤية فى هذه القرية !

واين ذلك الكالدرون ؟

فى الجهة اليمنى من الجبل ولكنه فى طريق وعرة غير معبدة ، لذلك أشاروا على أن اصطحب معى مرشدا ، وقدموا لى رجلا أجمعوا على اختياره وذكر والى أنه خير من يؤدى هذه المهمة على اكمل وجه ، ذلك هو سيمون العجوز الذى يقطن منزلا قريبا من المحطة ، يراه الانسان متواضعا صغيرا أبيض ذا نوافذ بيضاء !

ذهبت الى منزل « سيجوز العمون » وقرعت بابه سائلا

ـ : « أهنا سيمون العجوز ؟ »

ـ : نعم هو هنا ، ولعلك تريد أن يصحبك الى الكالدرون ؟

ـ : « ذلك ما أريد ! »

ـ : اذا كان ذلك فاعلم أنه مريض منذ هذا الصباح ، فهو لا يستطيع لمشى . ولا يقدر على الخروج معك ، ولكن لا عليك ، فان لدى من يقوم مقامه ، لدى « داركى »

ـ : « حسنا ، نادى اذن « داركى »

ـ : « غير انى انبهك الى ان « دراكى » هذا ليس انسانا ! »

ـ « ليس انسانا ؟ »

ـ « كلا » ، بل هو كلبنا ! »

ـ « ماذا ؟ كلبكم ؟ »

ـ : « نعم ، داركى كلبنا ، وسيقوم بارشادك على اكمل وجه ، وسيؤدى مهمته أحسن أداء ، كما يؤديها زوجى بنفسه ! فان من عادة داركى . . . »

---

(١) هو القزان أو الدست

ـــ : « من عادته ماذا ؟ »

ـــ : من عادته أن يرافق زوجي في غدواته وروحاته الى الكالدرون منذ سنوات عدة ، لذلك درس جغرافية الطريق وعرف مواقعه أحسن معرفة ، وكثيرا ما اصطحب السائحين اليه ، وهو لشدة ذكائه يؤنس رفيقه ويسليه ، وجماع القول ان « داركى » لا يعوزه إلا النطق ، وليس هذا بذى خطر . فليس المكان الذى تقصد إليه أثريا يتطلب زائره شروحا وتفاصيل ، ولكنه مكان تنحصر ميزاته كلها فيما تحبوه به الطبيعة من جمال وإبداع ، اصطحب معك داركى فهو ـــ فضلا عملا اخبرتك به من المزايا ـــ أقل كلفة من زوجي . فنحن نتقاضى ثلاثة فرنكات على ارشاد زوجي ، بينا نكتفى بنصف هذا القدر إذا صحبك « داركى » .

ـــ : « حقا ! فأين داركى ؟ »

ـــ : « هو نائم فى جهة مشمسة من الحديقة . فقد رجعوا من زيارة الكالدرون مع رفقة من السائحين فى هذا الصباح ! »

ـــ : « ناديه اذن ! »

***

جاء داركى مسرعا الينا قافزا من النافذة ، وكان قبيح الخلقة أسود اللون ملبد الشعر . ولم يكن شكله جذابا ، ولكن كان يلوح عليه ـــ رغم ذلك ـــ سيما الجد والرزانة والحزم أيضا ، ولقد كانت نظرته الأولى التى ألقى بها على نظرة نفاذة مستوعبة فاحصة ، تأملنى بها من رأسى إلى قدمى ، وكأنما أراد أن يقول ـــ لو كان فى مكنته النطق ـــ :

« هذا سائح ، وهو يريد الذهاب إلى الكالدرون ! »

ودار بذهنى أننى أضعت القطار بتلكئى . وأننى جدير ألا أدع القطار التالى يفوتنى أيضا ، فلم أرد اضاعة شىء من وقتى حتى لا أقع فيما فررت منه من قبل ، فأخبرت السيدة أن كل ما لدى من الوقت هو ثلاث ساعات للذهاب والاياب من الكالدرون ! »

فقالت لى ـــ : « أنا عارفه بما تقول ، انك تريد اللحاق بقطار الساعة الرابعة ، إلا فاطمئن ولا يساورنك أى خوف ، فان داركى سيرجع بك قبل ذلك بوقت كاف ، تعال يا داركى ، اذهب به إلى هناك ، إلى هناك يا ولدى ! »

ولكن داركى أبدى كسلا عن الذهاب معى ، ولبث فى مكانه ناظراً إلى سيدته نظرة قلقة!

فقالت السيدة العجوز — : « أوه كم أنا غبية ، لقد نسيت ، لقد نسيت السكر ! »

وذهبت العجوز فأحضرت له أربع قطع من السكر من خزانة قريبة وأعطتنيها قائلة :

هذا هو السر فى رغبته عن الذهاب معك ، اذ لم يكن لديك شىء من السكر . أما الآن فأنت ترى يادار كى أن مع السيد ما تطلبه من السكر. اذهب معه اذن يا ولدى إلى الكالدرون ، إلى الكالدرون ، إلى الكالدرون ! »

وكأنما كان يجيبها بنظرته قائلا — : « نعم ، نعم ، إلى الكالدرون ، أنا فاهم ما تقولين ان مع السيد قطع السكر... ونحن ذاهبان إلى الكالدرون ... ذلك أمر واضح جلى أتحسبينى غبياً ؟ »

وقبل أن تكرر عليه السيدة العجوز قولها : « إلى الكالدرون » نظر إلى داركى نظرة من يريد أن يقول :هاهو ذا الباب أمامك فانطلق أثرى لنذهب إلى حيث تريد ، فهل أنت فاعل ؟ »

فلم أزد على أن تبعته منقاداً ، وبدأنا السير ، داركى أمامى وأنا خلفه ، ومشينا فى الطريق التى تتخلل القرية . فصادفنا كثيرا من الأطفال وأخذوا يداعبون الكلب قائلين : «الينا الينا يادار كى ، اين تذهب يادار كى ؟ »

ولكن الكلب عزف عن مداعبتهم وأشاح بوجهه عنهم — وعلى أسارير هامارات الجد وعلى ملامحه دلائل من يشعر أن على عاتقه واجباً محتما اداؤه لينقد عليه أجره المقرر، وصاح أحد الغلمان : دعوه فى طريقه فهو ذاهب ليرشد السيد إلى الكالدرون . عم صباحاً أيها السيد ! »

فابتسمت له متكلفاً ، لأننى كنت مستغرق الفكر فى التأمل فى هذا الحيوان العجيب، لقد كان فى هذه اللحظة معلمى وكان عارفاً أين يذهب بينما أنا أجهل ذلك ، وأسرعت الخطى للخروج من القرية لأخلو بداركى بين روائع الطبيعة التى ابهجتنى وملأت قلبى اعجابا

وبدأت رحلتنا فى طريق مخشية غير معبدة تعلوها الأتربة وتلهبها حرارة الشمس.

وكان الكلب يسير فيها سيرا حثيثا لا وناء فيه وأنا أتبعه حتى دب إلى الكلل والاعياء وحاولت أن أتباطأ فى السير ،وعبثا قلت له : « استأن يا داركى قليلا » فقد ظل سائرة لا يلوى على ندائى ولا يأبه لما أقول،ولقد كنت على وشك الجلوس تحت ظل شجرا غير وارفة الظلال لاستظل بظلها القليل، ولكنه نظر إلى نظرة غاضب حانق وطفق يصرخ نابحاً نباح المهتاج الساخط، وهو يحدجنى بنظرات الغضب والغيظ . وهذا معناه انى خالفت ارادته وعملت بغير مايحب، وكأنما كان يرى أن هذا المكان غير ملائم للجلوس فيه فأذعنت لاشارته مضطراً و واصلت معه السير، وانطلق داركى حينئذ انطلاق الظافر وسار أمامى فرحاً بتلبية رغباته، فقد فهمت ذلك من امارات الرضى البادية على ملامحه ، وما كدنا نسير دقائق معدودة حتى انتهينا إلى طريق بهيجة وارفة الظلال مزدانة بالازهار عطر هواؤها بنسيم عليل ،متجاوبة الأصداء بخرير المياه ذى الرنة الموسيقية المحبوبة ، وسار « داركى » فى تلك الغابة وأنا أتبعه ، ولم نكد نسير نحو مائه ياردة حتى رأيته شاخاً بأنفه مصيخاً بأذنيه إلى ذلك الرنين الموسيقى بادى الابتهاج بذلك الجمال الذى يكتنفنا ، ثم القى بنظره على مقعد تخيره لى ونظر إلى نظرة المقترح أن أجلس فى هذا المكان ؛ وكنت حينذاك قد بدأت أفهم ما يرمى إليه داركى بلغته الصامتة البليغة . فكأنما كان يقول لى :

«الآن نجد المكان الذى تستريح فيه ، فهنا مكان رفيق طيب الهواء . وأين هذا من المكان المشمس القائظ الذى كنت تريد الجلوس فيه ؟ تعال فاجلس هنا إن شئت فقد أذنت لك بالجلوس ! »

وثم جلست حيث أشار، وأشعلت سيجارا ، ولقد هممت أن أعطيه سيجارا ، ولعله كان يدخن لو أعطيته السيجار ، ولكنى ذكرت أنه ربما فضل قطعة من السكر على ذلك ، ولم أكد أقذف بها اليه حتى تلقفها منى بمهارة فائقة ولاكها بين أنيابه ثم ارتمى جاثيا تحت قدمى ، وكان من الواضح أنه فى حاجة مثلى إلى الاستراحة قليلا فى هذا المكان

ولقد نام مدة عشر دقائق ، ونعمت أنا أيضا براحة تامة شعرت فيها بالغبطة والسرور وقد بدأت تلوح على أسارير « داركى » دلائل الثقة فى والابتهاج بى ، فعزمت على اتباع أوامره بلا تردد والانقياد له انقيادا اعمى ، ثم قام داركى والقى بنظرة إلى وبأخرى

إلى الطريق ، كأنما يقول : « لنتم رحلتنا يا صديقى ولنواصل سيرنا الآن ! »

وسرنا معا سيرا وئيدا بين ظلال الأشجار الوارفة كما يسير الصديقان ، وكان يبدو على داركى الابتهاج بجمال المكان وهدوئه وحسن موقعه وكان كلما مر بمنظر طبيعى رائع أو لمح جمالا فاتنا نظر إلى نظرة ملأى بشتى المعانى المختلفة ، وربما تريث قليلا ليثنى من صحة الطريق التى يسلكها ويتثبت من أنه لم يعد الصواب حتى وصلنا إلى مكان وعر المسالك فى تسلقه كثير من المخاطر فكان يسير أمامى الهوينا ثم يقف بين حين وآخر — وهو يرنو إلى مشجعاً إياى على الصعود حتى إذا نجحت انبسطت اساريره وبدت عليه علائم الرضى والارتياح

ولم نكد نتنبى من سلوك ذلك الطريق الوعر حتى ظهر أمامنا الكالدرون ، وهو ينبوع ليس فى رؤيته كثير من الروعة ، وما كنت لأقنع برؤيته وأتكبد فى سبيل ذلك كل ما تكبدته من عناء ونصب . رغم ما فيه من جمال طبيعى عادى ، على أنى ظفرت فى هذه السياحة بما هو أبدع من الكالدرون وأجدر باللحظة والاعتبار وأخلق بترفيه النفس والترويح عنها ، نعم فقد ظفرت بداركى ، وهو عندى شىء كثير — !

ومنحت داركى قطعة أخرى من السكر فالتهمها فرحاً مسروراً وعلى ملامحه معانى الشكر والغبطة

وبعد قليل من الزمن بدأ يظهر على وجه داركى شىء من القلق ، وأخذت أقرأ على أساريره الرغبة فى العودة ، فهممت تلبيه لأمره . وما كدت أسير فى أول الطريق التى جئنا منها ، حتى رأيت داركى يقف مكانه ويلقى بنظره إلى طريق أخرى غير التى أسلك ، ولقد فهمت بسرعة كل ما يعنيه داركى وألفت لغته البليغة فى صمتها ، فلم تعد تخفى على معانيها قط ، وحينئذ أدركت ما يرمى اليه بنظرته ، فقد أراد أن يقول لى :

« كيف تسىء الظن بصاحبك داركى إلى هذا الحد ، أتحسبنى أعود بك من حيث أتيت ، سالكا نفس الطريق ، لا ياصاح ، فان الوقت أثمن من أن يضيع فى عمل معاد ومثلى من يقدر قيمته ، شأن المرشد الأمين ، فهلم نسلك طريقاً أخرى ، ونهبط من مكان غير الذى عرفته »

ولقد سرنا من الجهة الأخرى التى رسم لنا داركى طريقها وهى أبدع وأجمل من تلك ، وسار أمامى داركى يمشى مشية المزهو الفخور ويلتفت إلى — الفينة بعد الفينة —

التفاتة الظافر المبتهج بظفره ، وهكذا سرنا حتى بلغنا القرية ، ثم واصلنا السير حتى وصلنا إلى المحطة

ولقى داركى فى طريقه ثلاثة كلاب أو أربعة من أصدقائه ، فأراد أن تداعبه وتمزح معه ، وسدت عليه الطريق محاولة تعويقه عن متابعة سيره ، ولكنه هر عليها هريرا ساخطا وعوى عواء المغيظ المحنق ، فأفسحت له طريقه ، وكأنما أراد أن يقول لأصحابه :

« لكل مقام مقال ، وأنتم تروننى منهمكا فى أداء عمل جدى ، يحتم على أداؤه ، لأنى أقود هذا السيد إلى المحطة وليس لدى متسع من الوقت للمزاح معكم ! »

***

ولم يقنع برفقتى إلى المحطة وادخالى معه حجرة الانتظار وكأنما كان يطالبنى بقطعتى السكر الباقيتين ، فأسرعت بالقائهما اليه ، فأكلهما مغتبطا ، وألقى على نظرة الوداع ، فكأنما فهمت منه ما معناه :

« لقد وصلنا قبل الموعد بعشرين دقيقة ، أفهمت الآن أن مثلى لا يغشك ولا يخلف وعده معك ؟ أو ثقت الان من ادراك القطار ؟ وداعا إذن ! رافقتك السلامة رافقتك السلامة !

« عن الانجليزية » تمت « ك . ك . »

اطلب من دار العصور للطبع والنشر
ومن جميع المكاتب المعروفة

نزعة الفكر الأوروبى